الطفل يكتشف قدميه

كان نيسان شهرا قاسيا. فقد انقطعت فعليا عن العمل الذي كان يهوّن علي إحباطي مع أوليفر، ذاك الطفل الذي يبدو أنني لم أستطع فعل أي شيء لأبقيه مبتهجا. لم أحاول أن آخذ الأمر على نحو شخصي، ولكني أشك فقط بأني لن أتوقف عن العناية به كل الوقت.

يبدو أن مشكلتي الكبيرة تكمن في حاجتي إلى بعض من الخيال. فما زلت أقضي كلّ فترة قبل الظهر محاولا، وبشكل عنيد، حمله على أخذ قسط من النوم، ونقضي معظم ما تبقى من اليوم بمشاهدة الأفلام. لقد أصبح لديه فكرة واضحة عن تاريخ السينما، ولكنه كان ينام في أثناء مشاهدة الأفلام الكلاسيكية.

ظلّت الأفلام، ولمدة أسبوعين من الزمن، تعمل عمل المنوّم السحري، ثمّ كان عليّ أن أبحث عن شيء آخر بعد أن توقف

مفعولها. ولم تعد النزهات، التي كنا نقوم بها بالسيارة بعد الغداء والتي كنت أستخدمها كورقة رابحة، هي الحل الذي أستخدمه. ما الذي تبقّى إذاً؟

صديق أم عدو؟

الأبوّة في صعود ونزول

تركّز معظم الأشياء التي تسمعها أو تقرأها عن الأبوّة على الرحلة الشاقة والإيجابية نحو تعميق التقدير والتفاهم بينك وبين طفلك، تلك الرحلة التي تؤدي إلى تطوّر الطفل من رضيع عديم الحركة والإحساس إلى طفل سعيد وحسّاس. ولكن هذا ليس انعكاساً عادلاً لتطوّر الطفل، كما أنّه ليس انعكاساً للعلاقات بشكل عام.

ستشعر أنك وصلت للقمة حينما يكون هناك انسجام تام بينكما، ولكنك ستشعر أيضا بأنك تنحدر إلى الهاوية حين ينعدم التفاهم بينكما. ومن الجميل أن تعرف بأن الأبوّة هي بمثابة سباق طويل وشاق وليست نزهة قصيرة، وعليك التوقع بأنك ستضرب الحائط أخيرا.

ستكون هناك بعض النقاط المضيئة وذلك حين تبدأ فترة التسنين أو خلال مرحلة أخرى من مراحل تطوره، حين يبدأ بتعلم الزحف مثلاً، أو الوقوف أو المشي. إن أي شيء يبدأ بتغيير نظرة طفلك إلى العالم سيكون له تأثير على نظامه اليومي وعلى علاقاته.

لهذا، لا تصب بالدهشة إذا توقف فجأة تأثير أي ألعاب أو أساليب كنت تستخدمها لحمل الطفل على النوم. فهذا كله جزء من عملية التحوّل، وسيكون عليك التهيؤ إما للتغلب على هذه العاصفة أو لتحمّلها. لا تأخذ الأمر على محمل شخصي، فلكي تنجز مهمتك كأب عليك تعزيز ثقتك بنفسك مما يعني حضور ذهنك الدائم لتتمكن من رؤية أي من المعارك تستطيع أن تكسب وأي منها لا تستأهل القتال.

تصبح الحياة أسهل عندما يكون هناك هدف تسعى إليه. في بداية شهر أيار قررنا الذهاب نحن الثلاثة فقط إلى كوخ ويلز وأخذ استراحة. أنا أنوي قضاء هذا الأسبوع في العمل والسباحة، وبشكل عام، أنوي العودة إلى الحياة.

ليندسي هي أكثر من يحتاج للاستراحة. فهي بالرغم من استمتاعها بجو العمل، إلا أنها، ومنذ بداية عملها لأربعة أيام في الأسبوع، تعرّضت لضغط كبير من الإدارة كي تعود وتعمل طوال الأسبوع. فقد كانت الشركة التي تعمل بها تتخبط بشأن مرتبها، فهم يقولون بأن دوامها الجزئي قد أربك النظام لديهم. أنا أشك بأنه يوجد الكثير من الامتعاض كونها تعامل بمرونة، والأمر السخيف هو أنك لو سألت أي شخص عادي فيما إذا كان يودّ العمل لساعات أقل بمرتب أقل لأجابك بالنفي. ولكن، وبما أنها تبدو أنها تملك شيئا لا يملكونه فإن الأمر لم يعجبهم... يا للعجب!

والأمر الآخر الذي كان يصعب عليها هو أنها كانت عندما تعود متأخرة ومتلهفة لاحتضان أوليفر ومداعبته كان ينام في حجرها فورا وأكون أنا مشغولا بعمل يستغرق مني نحو الساعة. فكان أوليفر في معظم الوقت الذي تقضيه معه إما نائما أو نعسان أو أنه كان نكدا. إن ميزان الحياة لم ينصفنا حتى الآن، ومازلنا كلنا نعاني النتائج.

هل وقع من تلقاء نفسه أم هل تمّ دفعه؟

المرحلة الرابعة من أعراض الآباء المتنافسين - التفاعل مع الأطفال الآخرين
إن أشد ما يقلقني، كوني أعترف بوجود أعراض حب التنافس مع الآباء الآخرين لدي، هو مدى تفاعل ابني مع الأطفال الآخرين.

على العموم أنا أعرف، كما يعرف غيري من الآباء، بأني قد قمت بتطوير السياسة الأمريكية الخارجية المتعلقة بالتفاعل، أريد لطفلي أن يمتزج بالعالم، ولكني أريد منهم أيضا أن يتعرفوا إلى وضعه الخاص. ولسوء الحظ فإنك، وبهذه الطريقة، سينتهي بك المطاف إلى حديقة عامة أو إلى دكان ألعاب مليء بأطفال "مميزين" يحاول كل منهم السيطرة على الآخر، وبمجموعة من الآباء المتنافسين الذين قاموا بإفسادهم.

المشكلة الأساسية في التفاعل هي أنها تشبه كثيرا العالم القاسي والمتشائم للحياة الحقيقية، وستكون هذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها طفلك معالم شخصيته الخاصة للغرباء. ستودّ أن تكون هذه تجربة جيدة وليست تجربة تتضمن تلقّي ضربة على الأنف من قبل طفل كبير، أو تتضمن سماع الكثير من اللغو من الأهل المشغولين. ولن يكون لديك القوة لتؤثّر في النتيجة، فهذا سيكون أشبه بإنهاء اللعبة. كل ما يمكنك فعله هو توجيه هذه اللعبة في الاتجاه الصحيح، دعها تستمر، راقب واحتفظ بالأمل، إن الطبيعة والجاذبية ستتكفلان بالبقية.

وبالطبع، فإن هناك أيضا مسألة الأطفال الآخرين، وبشكل خاص كيف ستبدأ بعدم تشجيعهم على مضايقة طفلك دون أن تجد نفسك في شجار مع آبائهم. سيكون التدخل الواقعي والعقلاني هو أفضل خيار، لا تحاول أبدا معاقبة أطفال الغرباء. وببساطة، فإن التحدث إليهم يكفي عادة لحملهم على الهدوء وطلب السلامة. وربما كنت أنت من يطلبها.

إن أكثر شيء يخيفني هو تأثير مزاجي السلبي على أوليفر كوني الشخص الرئيس الذي يعتني به. فمازلت لا أشعر بانتمائي لأي من المجتمعات العائلية. وما زلنا مثابرين على الزيارات الكئيبة التي نقوم بها إلى مستوصف الأطفال، ولكني أحاول جاهدا عدم الاختلاط بالأمهات. أتحدث إلى بعض الجوار، ويحب أوليفر رؤية الأطفال يركضون في الطريق حول منزلنا، ولكنه يصغر أقرب طفل إليه بخمس سنوات على الأقل، وهو في النهاية غير قادر على الحركة بعد. كنت قد حاولت أن أصحبه إلى النوادي التي كانت الأمهات موجودات فيها مع أطفالهن، ولكني خشيت نوعاً ما من أن يقوموا بتجاهله، وخفت من ردة فعلي فيما لو قام أحد الأطفال بإيذائه أو إزعاجه.

من الصعب علي أن أجزم فيما إذا كان إحباط أوليفر، الواضح، هو نتيجة حتمية لفشلي في إسعاده، هل هو إحباط خارجي، أم أن الأمر خارج عن إرادته. كان علي مراقبة قنبلتي الهوليوودية هذه عن كثب، فهي نادرا ما تبدي تفاعلاً مع قوى الطبيعة. ربما لم أكن مبرمجا، وراثيا، للعناية بأوليفر، وربما لم يبرمج هو لأن يبقى تحت رعايتي. وإذا كان هذا صحيحا، فإننا على وشك التصادم، وقد حدث ذلك.

*****

أمضينا، ولأول مرة، عطلة خارجية عظيمة وناجحة. وبالرغم من أن شيئا لم يتغير، نتيجة لكل الكلام الذي تحدثنا

به في العطلة، إلا أننا قررنا أننا سنلقى النتيجة لاحقا فيما لو بذلنا قليلا من الجهد في الوقت الحالي. وعلى الأقل كان لدينا الأمل بحصول ذلك.

وبالنسبة لي، أحتاج لبعض الرشوة كي أبذل مزيدا من الجهود، فتمّ الاتّفاق على زيادة الميزانية المخصصة للهو والتسلية، وبهذا يمكننا، أنا وأوليفر، زيادة عدد الرحلات الخارجية التي نقوم بها قليلا. سنزور الأجنحة الموجودة في حديقة الحيوان، الأجنحة القومية، وسنظل ولطوال العام نزور حديقة الحيوانات البريّة. سنظل نزورها حتى نسقط من التعب.

لن يمكن لكل هذا القدر من المتعة والتسلية التخفيف عن ليندسي من عناء العمل، ولكنه من المحتمل أن يعني بأنها ستعود لزوج أقل إحباطا ولطفل أقل مللا.

*****

أصبحت الأمور أكثر سهولة عن ذي قبل. ما زلت عرضة لأن أنسى الأشياء الضرورية للرحلات الخارجية، وما زلنا نقوم بجولاتنا حول البلدة تحت الغيوم الماطرة. وبالرغم من أن الحياة بدأت تتلوّن إلا أن أوليفر بقي مرتبكا قليلا بشأن الأماكن التي آخذه إليها.

سيكون الوضع أفضل بالتأكيد فيما لو كان هناك أناس نتكلم معهم. ولهذا فقد كنا نتجول حول الحديقة جيئة وذهابا،

على طول الشارع، على أمل أن أجد أحد الأشخاص البائسين، مثلي، لأنخرط معه في حديث قد يطول لساعة أو أكثر. كانت الحدائق الأمامية لبيوت الجيران تبدو كأراض قاحلة هجرها أصحابها للحدائق الخلفية تهربا مني. كانت الستائر تسدل بعصبية عند اقترابنا. إنني ضجر وممل في آن معا.

كنت قد فكرت قبلا، بأن هذه الفترة التي أمضيها في العناية بالطفل ستكون رائعة وناجحة، كما هي معظم حياتي، ولكن، وبما أن الوضع هو كما عليه الآن، فإنه سيكون علي أن أبقى مربوطا ومجبرا على تقديم أفضل ما لدي.

يلوح في الأفق وميض من الأمل بالتواصل مع العالم من حولنا نظراً لاقتراب عدة مناسبات. فقريبا سيأتي عيد الأب وستأتي في أعقابه إقامة البطولة الأوربية لكرة القدم. وهو الدوري الأول بالنسبة لنا.

*****

في عمل تشجيعي واضح، قام أوليفر بشراء كرة قدم جديدة بمناسبة عيد الأب. كان يوما جيدا بالرغم من أنني مازلت غير قادر على أن أفكر بنفسي كأب. إن التحدث مع والدي بشأن أوليفر هو بحد ذاته تطور غير اعتيادي. وما زلت، حتى الآن، أشعر بإثارة بالغة حين أتحدث عن ولدي، وهذا الأمر يجعلني أشعر بأنني قد كبرت.

اصطحبت أوليفر مباشرة إلى محل الرياضة وذلك من أجل شراء قمصان الفريق الإنكليزي. في يوم المباراة الأولى اصطففنا في غرفة الجلوس بقمصاننا البيضاء والحمراء نركل الكرة الجديدة بحماس عظيم. ثم استغرق أوليفر في النوم، جلست أشاهد اللعبة، وبدأت بتوجيه السباب بعد أن خسرنا.

استيقظ أوليفر في المباراة التالية، ولكنه كان شديد التعب. كان يصرخ مذعورا في كل مرة انطلقت فيها أصواتنا بالتشجيع أو بالتنديد. كانت التعاسة تملأ وجهه الذي تلوّن بلون قميصه الأحمر. وفجأة شعرت هنا بالذنب لإجباره على اللعب بشيء لا يفهمه ولا يستمتع به.

إن الجلوس على ركبتيّ مع ابني ونحن نهلل معاً لفوز فريقنا هي إحدى الصّور العظيمة التي رسمتها في خيالي الأبوي قبل أن يولد أوليفر، ويبدو أن الصور ستكون لي بمفردي ولا شيء أفعله معه في الواقع. لن يحدث شيء مما رسمته في خيالي، أو على الأقل ليس بالطريقة التي رسمته بها وذلك لأن الحياة ليست شيئا يمكن رسمه أو التنبؤ به، ليست تجارب نصّية. فابني سيكبر بلون أحمر فيما لو أردته أن يكبر بلون أزرق والعكس بالعكس، وسأفشل فشلا ذريعاً لو حاولت أن أحكم تصرفاته. فالأمر إذا، يشبه فريق كرة القدم.

*****

أدارت الحياة رأسها فجأة. فقد تزايد إحباط ليندسي في عملها. أظن بأنهم كانوا يتوقعون من ليندسي، الطفلة السابقة، أن تعود، بمعجزة، وتبدأ بتحمل جميع الأعباء مرة أخرى. ولكن شيئا من هذا لم يحصل مما أحبطها وأحبطهم وجعل من استمرارها بالعمل لوقت جزئي شيئا مستحيلا، فقررت ترك عملها بشكل نهائي.

كنا قد وفّرنا بعض المال، قبل أن تحمل ليندسي، وذلك من أجل التغلب على مشكلات الحياة في حال عدم عودة ليندسي للعمل بعد انقضاء فترة الأمومة. إن هذه المدخرات تجعلنا نشعر براحة كبيرة، وخاصة أنني أصبحت المعيل الوحيد للأسرة.والضريبة، المتعلقة بدخلنا، والتي كنت قد قدّمت بها تقريرا في المرة الماضية، تمّ تحويلها إلى نفقات الأغذية. ولم تعد لدي نقود كافية لتغطية نفقات الكهرباء التي أستخدمها الآن أثناء كتابة هذه الجملة.

لم يخطر لي سابقا أن أجري سيكون هو المصدر الوحيد لدخلنا، ولكن يبدو أنه سيكون كذلك. ولكي أحافظ على الاكتفاء الذاتي يتوجب علي أن أكون عمليا، مركّزا، وقياديا. لقد حان الوقت لعرض المنزل للبيع.

هناك، في الواقع، أمل آخر يلوح في الأفق بالرغم من أنه ليس بعظيم الفائدة، فقد استطعت الحصول على عمل في الدورة الصيفية للجامعة، حيث قمت بالتدريس العام الماضي.

إنه عمل جزئي في البداية، ويستمر لشهرين فقط، ولكنه سيحقق الهدف الرئيسي وهو تجنب اتخاذ أي قرار بشأن ما سنفعله لاحقا.

*****

بدأت الأمور بالتحسن. لم تصادفني أي مشاكل خلال ساعات عملي، وأحبّ كل من ليندسي والطفل وجودهما معا مرة أخرى، كانا يقومان بنزهات صباحية طويلة في أثناء وجودي في الكليّة. أما في فترة بعد الظهر فقد كنا نخرج معا كعائلة. وهكذا، ومرة أخرى وجدنا أنفسنا ننعم بأجواء خيالية سعيدة لأول مرة منذ بضعة أشهر.

ومن ثم ابتدأت ساعات الدوام الكامل وتغيرت الديناميكية مرة أخرى. كنت حريصا، خلال التدريس في السنة الأخيرة، على عدم الإشارة إلى ليندسي أو إلى الحمل. كان العديد من طلابي من الجنسية اليابانية، وهم حريصون جداً على دراستهم. ويمكن لأي تقصير طفيف في تدريسهم، ولو بنسبة واحد في المائة، أن يقود إلى كثير من المشاكل. وهنا تجسّدت حرفيتي تماما.

أما هذا العام فقد قمت بذلك. انتظرت استراحة صباحية في أحد الأيام قبل أن أخرج صور أوليفر. ولم أخجل من التعبير عن فخري به، بشكل ممل بالنسبة لهم على

ما أعتقد. ولطالما كنت سعيدا بمقاطعة الدروس والتحدث عن كل لحظة من لحظات استيقاظه. إن بعدي عنه لا يتجاوز بضع ساعات كل يوم ومع ذلك فأنا أشتاق له بشدة. وكان هذا يكلفني غاليا في الأيام التي أكون فيها خارجا، كجزء من الدورة التدريسية، فأجد الأعذار لشراء عدد من التذكارات لطفلي الصغير، مما يشكّل عبئا علي كوني المعيل الرئيس.

بعد معاناة لا تنتهي، دامت لثلاثة أشهر، بالعناية بأوليفر، أصبحت فجأة خبيرا بالعناية بالأطفال. فقد كنت أقدم النصح لليندسي عند كل مناسبة، فكانت تردّ بمحاولات مختلفة أكثر صراحة وبالتأكيد أكثر إيلاما.

بقيت ليندسي تواجه مشاكل عديدة في العناية بأوليفر خلال تواجدي في العمل. فهو قد بلغ من العمر مرحلة يريد فيها أن يفعل كل شيء، ولكنه غالبا غير قادر على فعل أي شيء. إنه يزحف ويناغي، ويتوق إلى المشي والكلام. ولديه طاقة غير محدودة على رفض أخذ قيلولة حين يطلب منه ذلك.

إنه أيضا يمضي قدما نحو فترة التسنين، التي بدأت في شهر أيّار واستمرت لشهرين. ومن الآثار الجانبية، التي أحدثتها هذه الفترة، هي نكده الدائم وتزعزع نظام نومه، الذي كنا قد عملنا على بنائه بعناية. ولكن من ناحية أخرى أتاحت لنا فترة التسنين المجال لإيجاد الأعذار لنوبات الغضب التي كانت تعتريه ولكل تصرفاته المزعجة التي كان يقوم بها؛

كتحطيم آخر هدية تلقاها من جدته، وتوجيه القذائف النووية نحو موسكو، كل هذا لأنه يمر بفترة التسنين. ولكننا توقفنا مع مرور الوقت، عن استخدام هذا العذر له فهو سيصل مرحلة المراهقة وسيكون لديه حوالي الخمسة آلاف سن.

*****

بحلول عطلة نهاية الأسبوع الأخيرة أكون قد وصلت إلى منتصف الدورة التدريسية، كان يوم الأحد يوما صيفيا رائعا. نزلنا مع أوليفر إلى أحد النوادي المحليّة، حيث جلسنا في الشمس وتناولنا المثلجات في حين تناول أوليفر كأس عصير. كان كل شيء يسير بشكل جيد من حولنا؛ ليندسي مرتاحة ومطمئنة، وأوليفر يتمتع بالصحة والسعادة بينما أقوم أنا بجمع المال. لماذا، بحق السماء لم أشكّ بحدوث خطب ما؟

في مساء الأحد ذهب أوليفر إلى فراشه بدون أي مشاكل، إلاّ أنه استيقظ في منتصف الليل وأخذ يتقيأ بشدة على فراشه. أخذناه للأسفل ولكنه تقيأ مرتين أيضا. وكان من المخيف مشاهدته وهو على هذا الحال، إلاّ أنه هدأ أخيرا بحيث تمكن من العودة للنوم. أما نحن فبقينا لساعات مستيقظين نراقبه ونستمع إليه.

بدا عليه قليل من التحسن يوم الأحد، لم يأكل أو يشرب إلا قليلا إلا أنه كفّ عن التقيؤ. ويبدو أن السبب الذي أزعجه،

مهما كان، قد ذهب في حال سبيله. صباح الاثنين، بدا أسوأ حالا وعاد للتقيؤ ثانية فقررت ليندسي هذه المرة الذهاب به إلى الطبيب. وبالرغم من أنني كنت في عملي إلا أن عقلي كان مشغولا في المنزل. قال الطبيب إن هذا كان بسبب إحدى الجراثيم وأن الأمور ستكون بخير والراحة هي كل ما يلزمه.

جناح الطوارئ

البقاء هادئا ضمن المشفى

لا يريد أي أب أن يتخيّل مدى ما يشعر به من الأذى والألم تجاه طفله الموجود في قسم الطوارئ. ولكن من المستحسن له أن يتوقع حدوث الأسوأ، خلال الأشهر أو السنوات المقبلة، مما سيمكّنه من مواجهة المخاوف التي سيلقاها في المستشفى.

وسواء أكانت إقامتك في المشفى طويلة أو مجرّد زيارة خاطفة، فإنّ دورك، في هذا السيناريو، مرتبط بالعمل الذي نكون قد أنجزته لتخفيف قلق الشريك. فعليك أن تكون قويًا كالصخرة وأن تكون مصدرا للراحة والثبات متجاهلا المخاوف التي تنتابك.

وبما أنك تفترض أن اهتمام شريكك سيكون منصبًا على مدى تحسّن صحة الطفل، عليك المحافظة على خيط التواصل الممتد بينك وبين الطاقم الطبّي، مما يعني حضور ذهنك الدائم. وبالرغم من الأجواء المريحة المحيطة بالجناح، إلا أن الطاقم الطبي يرزح تحت وطأة العمل، ولذا يتوجب على أي شخص كان ألا يشتت انتباههم بدون سبب وجيه. وفي الوقت نفسه، فأنت لست هناك لعمل صداقات مديدة بل للعناية باحتياجات طفلك. لا تكن عدوانيا، بل حاول أن تكون هادئا وحازما إن احتاج الأمر لتوجيه اللوم أو طلب المزيد من السرعة.

ولو كان شريكك شخصا مثل ليندسي، عليك تذكيره بأن يأكل ويشرب وينام. فهي بحاجة للراحة، ولو وجدت بعض الممانعة عليك أن تكون حازما ولكن لبقا في الوقت نفسه.

وباستثناء تقديم الدعم، ليس أمامك الكثير لتقوم به عملياً خلال تواجدك في المشفى. وهذا سيدعك تشعر بالذنب نوعاً ما أو تشعر بأنه لا لزوم لك، ولكن، وبالمقارنة مع ما مررت به سابقاً في جناح الولادة، فإن حضورك الفعّال معهم هو كل ما يلزم.

بحلول يوم الثلاثاء كانت حالته أكثر سوءا. فهو، بالكاد، استطاع الاستيقاظ والجلوس، وعندما أخذته في حضني بعد عودتي من العمل، تناول قطعة من البسكويت، ولكنه سرعان ما بدأ بالتقيؤ على ثيابي. توجّهنا إلى عيادة الطبيب مرة أخرى، ولكنّه، في هذه المرة، لم يكن متأكّدا من أن كل شيء يسير على ما يرام فنصحنا بالتّوجه مباشرة إلى المستشفى، وكتب ورقة بالملاحظات لنوصلها للمعنيين الموجودين في جناح الأطفال. كان أوليفر ملتصقا بنا شاحبا، منهكا، غائر العينين. شعرت برغبة في التقيؤ أنا أيضا وبأنني أحمق كبير.

في المستشفى، خرقت القاعدة الصارمة والخاصة بي التي تقول "ممنوع قتل الممرضات". فلشدة اضطرابنا أخطأنا المدخل الخاص بجناح الأطفال، كان أوليفر يركع على رجليه وقدميه يتقيأ على أرض المشفى عندما ظهرت إحدى الممرضات لتخبرنا بأننا قد أخطأنا المدخل، وبأنها تظن أن أوليفر لا يبدو على ما يرام.

أجبتها، محاولا تثبيت كلماتي: "نعم، ولكن فلورنس هل بإمكانك مساعدتنا؟".

أجابتني: "نعم، ولكني لم أستلم مناوبتي فعليا بعد". ولكنها، وللأمانة، سرعان ما كانت على رأس عملها آخذة الأمر بمنتهى الجدية بعد ما رأت تهديدا واضحا في عيني بأنني سأقوم بفصل رأسها عن جسدها وركله عبر الدهليز.

كان أوليفر بلا حراك تقريبا، وبلا حياة عندما وضعناه فوق السرير، كان الشحوب يصبغ جلده، عيناه غائرتان ولا يستجيب للحديث مما أقلق تلك الممرضة. وبعد أخذ وردّ من قبل الأطباء، تقرر إدخال السائل الوريدي إلى جسمه. ذهبت ليندسي برفقته عندما أخذوه لغرس الإبرة في ذراعه. ويا للحسرة، فأنا لم يكن بإمكاني وقف هذا الأمر وكنت أعرف أنه ليس الوقت المناسب لاستعراض بطولتي الوهمية.

استطعت سماع صراخه منطلقا عبر جناح المشفى، ولكني لم أعرف إن كانوا قد استطاعوا وضع تلك الإبرة في ذراعه. وعند عودتهم، بعد حوالي 15 دقيقة، كانت الضمادات تملأ ذراعيه وقدميه من الجراح التي خلفها الأطباء أثناء محاولتهم البحث عن وريد مناسب.

أحضرت الممرضة كيس السائل الوريدي وجهاز المراقبة التابع له وأعادت وضعهما وربطهما. كان علينا الانتظار في

كل مرة لمدة تزيد عن الخمس دقائق من أجل أن يتمكن أحد أفراد الطاقم الطبي المناوب من التعامل مع هذا الجهاز الذي كان يصدر صوتاً حادا عندما لا يكون سعيدا. وكل تأخير كان يعني أخذ وقت أطول في مد جسمه بالسوائل اللازمة. ولم أستطع تحمل ذلك بسبب أعصابي المتوترة. عاد الطبيب وكشف على أوليفر ثم قال بأنها مجرد مسألة بسيطة تستدعي الانتظار ورؤية مدى تأثير السائل الوريدي على الطفل. لم نرتح لكلامه هذا بالرغم من أنه كان يبدو هادئاً وغير قلق بالمرة. وقد سألنا عن آخر وجبة كان أوليفر قد تناولها. وعندما أجبناه أنها قطعة من البسكويت، قال: "كم هذا جميل، فبالرغم من بلوغي الثانية والثلاثين إلاّ أنني ما زلت مغرما بالبسكويت".

فتحت فمي مندهشا، ماذا في الثانية والثلاثين؟ إنه في نفس عمري، وأنا في هذا العمر لا أعرف الوسيلة التي تمكّن طفلي من استعادة صحته. إنني يائس ومنزعج في الوقت نفسه خشية أن تكون مسؤولية العناية بطفلي قد أوكلت إلى مراهق أو متدرب. أردت أن أطلب طبيبا يملك خمسين عاما من الخبرة، انتظرت ذهابه لأخبر ليندسي بوجوب تقديمنا شكوى بهذا الخصوص فطلبت مني الذهاب إلى البيت.

لم يكن هناك تغيير يذكر في هذا الصباح، فبالكاد استطاعت ليندسي النوم في الليلة الماضية وكذلك كان الأمر بالنسبة لي. كان العالم أشبه بحلم غير واقعي، فبينما كنت

أشعر بالمرض تدفق ينبوع حنان ليندسي فظلت مشدودة إلى جهاز المراقبة المراوغ وقامت بمحاولات مضنية وطويلة لإعادة تثبيت إبرة المحلول في ذراع أوليفر.

عدت إلى البيت ثانية بعد جلوسي صامتا لساعتين من الزمن. كنت أشعر بأن حالتي تزداد سوءا، جلست على أرض الحمام مرتجفا بعد أن أفرغت كل ما تحتويه معدتي. حدّقت في صورتي المنعكسة في المرآة، كانت شفتاي تصطبغان بلون أزرق. تناولت بعض الدواء وتمددت على الأريكة.

شعرت ببعض التحسن بعد أن نلت قسطا من النوم فتوجهت ثانية للمستشفى. وعندما وصلت كان أوليفر يجلس في حجر ليندسي فرفع رأسه مبتسما لي شعرت عندها بأن قلبي يقفز بين أضلعي.

أخبرنا الطبيب، ونحن في طريقنا للخروج، بأن أوليفر كان يعاني من نوع من الجراثيم البكتيرية أو حتى ربما تكون نوع من أنواع الحمى ولكنه سيكون بخير بعد بضعة أيام من الراحة. كدت أن أقوم بتوجيه اللوم وبأنه كان يتوجب عليهم إخبارنا بهذا الأمر سابقا، ولكني، وعندما تذكرت تصرفي المندفع في الليلة الماضية، أبديت امتناني لهم لإخفائهم هذه الحقيقة عني ليوم آخر.

لم أعتقد، قبل هذه التجربة الأخيرة، بأنّه كان قد بقي هناك أي أمر متعلق بالأبوة لم نختبره. ظننت بأننا قد عرفنا

كل الأسرار، بأننا قد بنينا كامل الثقة والخبرة والمعرفة المتبادلة للتعامل مع كل الحالات التي ستصادفنا. كم كنت مخطئا!

صحيح أن مرض أوليفر ربما يكون قد زعزع ثقتي بمعرفتي إلا أنه جعلني أفكر بأنه ليس هناك ضمان لأي شيء. وعندما تنتهي الدورة الصيفية في الجامعة سأكون أبا أفضل، أكثر مرحا، وأكثر مسؤولية، أقل اضطرابا وأقل انفعالا. سأضاعف عدد صوره في محفظتي وسأضاعف محاولاتي لإبعاد الغرباء عنه. وسأبذل ما بوسعي لأبقيه آمنا وبصحة جيدة.

*****

كان خوفنا على صحة أوليفر بلا حدود. كنا في الأسابيع الأولى نقلق عليه من أي شيء مهما كان صغيرا حتى لو كان ذرة غبار. كنا نبقى قريبين منه حين يحاول الزحف أو التسلق خائفين من التقاطه لبعض الأوساخ والجراثيم الممرضة.

ليس من العدل استخدام مرض طفلي كعذر لتكاسلي، ولكني قضيت معظم الشهر الأخير معه. وربما يعود هذا، بشكل أو بآخر، لشعوري بالذنب لتركه يمرض أولاً، ولشعوري بحاجة ليندسي للاستراحة من دورها في الاعتناء به طوال الوقت ثانياً.

افرد جناحيك

السفر بحراً مع الطفل

من الممكن أن يكون السفر بحراً مع الطفل هو تجربة عظيمة ولكن بشرط اتخاذك لكافة الاحتياطات اللازمة.

فقد تجد نفسك تناضل في مباريات حقيقية، وسط المتاجر الأجنبية، للحصول على علب للحليب أو فوط للطفل. لهذا، فمن المستحسن أخذ مثل هذه المستلزمات معك حين التحاقك بواحدة من تلك الرحلات.

تأكد من وجود سرير لطفلك، لو كنت مسافرا برحلة جوية أو بحرية، فأنت لا تريد أن تظل حاملا للطفل لمدة قد تزيد عن العشر ساعات. ستقوم بعض شركات السفر بحجز سرير للطفل بينما تفضّل شركات أخرى مراقبة الأهل وهم يتقاتلون عند قدومهم الأول، وهي بهذا تقدّم خدمة مشاهدة المباريات القتالية الحية، فلو لم تكن لديك الرغبة بذلك الأمر أنصحك بأخذ سرير طفلك الخاص معك.

ستحتاج دوما لبطاقة التأمين الخاصة بالسفر، فتأكد من أن كل فرد قد حصل على تأمينه الخاص، ولا تنس أيضا بطاقة التأمين الصحي التي تمنح خصما معتبرا للشؤون الصحية في عدد من الولايات. يمكنك الحصول على التفاصيل من مكاتب البريد ووكالات السفر. تذكّر بأنك تحتاج لاستخدام تلك البطاقة لكل فرد من أفراد الأسرة، يمكنك الحصول على مزيد من المعلومات المتعلقة بالرحلات، بما فيها إعطاء لقاحات الأطفال والرضّع، من المكتب الخارجي لرابطة الشعوب البريطانية.

وبالرغم من الصعوبات التي واجهتنا، خلال مرحلة ظهور أسنانه، فإن ارتباط ليندسي بأوليفر أصبح قويا خلال أشهر

الصيف هذه. وربما كانت رغبتي في البقاء معه الآن هي رغبة في مواكبة مراحل تطوره. إنني مسرور بتغير الأمور؛ مسرور بوجود ليندسي في البيت، ولكني حزين لأن وقتي مع أوليفر لا يحقق مزيدا من النجاح. أفتقد التقارب الذي كنا نتقاسمه حتى عندما لم تكن الأمور تسير بشكل جيد.

حصل لأوليفر حدثان مهمان في يوم واحد؛ فقد أقمنا له حفلة غداء بمناسبة عيد ميلاده الأول، ومن ثم أخذناه في المساء في رحلة بحرية إلى إيرلندا. وكانت هذه رحلته الأولى عبر البحار. ولا ندري هل ستكون هذه الرحلة رائعة أم أنها ستكون بمثابة كارثة.

*****

ربما يجتمع الأمران معا. ولأن الأمر لا يشبه يوم قدومه الهادئ إلى الدنيا، فقد كان عيد ميلاده الأول أشبه بمباراة رياضية تغصّ بالمشاهدين. فكل واحد من أجداده كان قد حجز مقعداً ليراقب الأحداث عن كثب دافعا بها إلى حافة التنافس.

كان الجدّان يجلسا بوقار ورزانة وكان حفيف أوراق جريدتيهما يخبرنا بأنهما ما زالا مستيقظين. أما الجدّتان فقد شمّرتا عن أكمامهما وبدأتا صراعا تقليديا للفوز بأوليفر. إنها مباراة مفروضة وقاسية أحيانا، وأنا مستغرب لعدم قيام شاشات التلفاز بعرضها على الناس. كان فريقا

طبيعيا رائعا مما مكّن أوليفر من قضاء وقت ممتاز سعد فيه بالحصول على كامل اهتمامهم.

وجاء وقت الهدايا فتراجعت الجدّتان إلى مواقعهما. جلست على الأرض مع أوليفر، فيما تقدّم الجدّان، كلّ بدوره، لتقديم الهدايا الضخمة، والتي فاقت كلّ منها الأخرى. وأخيرا، كنّا، أنا وهو، تائهين في بحر من الرزم والمغلّفات والقطع البلاستيكية التي بحاجة لتركيب.

ثم حان وقت الطعام، الذي كان عبارة عن مائدة عامرة قامت ليندسي بإعدادها. إن كل هذا الاهتمام، الذي أُحيط به أوليفر، قد فتح شهيّته للطعام، فتوجّه نحو الشطائر وقالب الحلوى. وبعد خمس دقائق من الانغماس في الطعام قمنا بتهنئة أنفسنا على نجاح هذه الحفلة. ثم تتوّج هذا كله بنوم أوليفر وهو يمسك بشطيرته نصف المقضومة، وضعناه في عربته فاستيقظ بعد نصف ساعة ليستأنف عملية الأكل كآلة أعيد تشغيلها.

كان هناك بعض الإغراء والضغط لتتم دعوة أولاد الجيران إلى الحفلة، أو لدعوة الناس الذين نعرفهم والذين لديهم أطفال في مثل عمر أوليفر. ولكننا رأينا أن أوليفر ما زال صغيرا على مثل هذا الهراء، بالإضافة إلى أننا سنواجه بأطفال كريهين تنبعث منهم رائحة غريبة، وستكون مهمتهم هي أن يسحقوا الكعك ويدوسوا عليه عبر المنزل، ثم، وعند

عودتهم، سيتوقعون أن نقوم بتحميلهم أكياس الحلوى اللذيذة. أنا لست على استعداد لرؤية مثل هذا الكابوس المزعج لمجرد أن نظهر وكأننا أهل محبّون.

على كلّ حال، كم من الأطفال يمكنهم الحصول على رحلة إلى إيرلندا كهدية عيد ميلاد؟ إنهم ليسوا كثر بالتأكيد، وأراهن على ذلك، لأنه لا يوجد الكثير من الأهل الذين هم على درجة كافية من السخافة لأخذ أطفالهم في رحلة بحرية قاسية مخلّفين وراءهم أوقات نومهم.

إنها حفلتي ولسوف أبكي...

تغطية أحداث حفلة عيد الميلاد

إن حفلة عيد الميلاد الأول لطفلك يجب أن تصنّف، وبكل أمانة، تحت بند المجموعة التنافسية للآباء، وذلك في حال لم تكن إقامة تلك الحفلة من أجل إظهار حقيقة أن الذنب كله يقع على الأمهات لقيامهن بصنع الحلوى الخاصة بهذه المناسبة.

ليس هناك ما يمنع من إقامة حفلة ضخمة في عيد الميلاد الأول لطفلك ولكن بشرط ألاّ تتظاهر بأن تلك الحفلة قد أقيمت فعليا من أجل مصلحة الطفل. فالطفل سيكون، غالبا، غارقا في النوم لنصف الحفلة والنصف الباقي سيقضيه إما خجلا أو مذعورا. يستطيع الطفل، وبالتأكيد، عند بلوغه السنة من عمره أن يستمتع بصحبة الأطفال الآخرين، ولكن حان الوقت لك لتتحقق، وبشكل علمي، أنهم يستمتعون بصحبته.

إن حفلة عيد الميلاد الأول بمجملها هي تغيير أساسي،فأنت سعيد لأنك، وبمهاراتك الأسرية، استطعت التواصل مع طفلك بهذا

الحدث، وتريد أن تظهر ذلك للعالم. حسنا، ولكن لا تقم بالتخطيط لإقامة حفلة ضخمة دون أن تكون مهيأ لأن يصاب طفلك بالملل في غضون خمس دقائق، أو أن يقوم بالتقيؤ في أوقات غير مناسبة.

لا تترك مسألة إقامة حفلة ضخمة تصبح مصدر توتر لك،بما في ذلك تقديم الطعام الخارجي وتحميل الهدايا. فلن يقوم أحد بالتفكير بأنّك أب سيئ، ولن يتذكّر طفلك أي شيء على كل حال. من المستحسن أن تطلب من أحدهم أن يقوم بتسجيل الأجزاء الهامة من الحفلة على شريط فيديو وخاصة إذا فاتتك بعض المواقف المهمة، أثناء انشغالك بتقديم الطعام والشراب. لا تحاول أن تقوم بالتسجيل بنفسك وإلا سيفوتك معظم أحداث الحفلة.

ولكن، كان هذا ما فعلناه بالضبط. فقد أصيب أوليفر بنوبة غضب سريعة عندما كان في السيارة، وبدا من المستحيل عليه أن يستقر، وبشكل عملي، داخل المقصورة الفاخرة. كان أحد مكبرات الصوت قد وضع فوق باب المقصورة مباشرة، وكان صوته مدويا وهو يقوم ببث الإعلانات لعروض السينما والأوقات الجيدة في البار.

صبرت ليندسي على ليلة طويلة أخرى ووافقت على نوم أوليفر معها في السرير. أما أنا لم أتمكن من النوم إطلاقا فقمت لأتمشى في دهاليز السفينة، وتوقفت في البار لتناول مشروب سريع، ومن ثم عدّت إلى المقصورة لأقرأ في سريري.

إنها الحادية عشرة وأربعين دقيقة. بقيت أنظر إلى ساعتي لخمس دقائق أخيرة منتظراً التقاء عقربيها. فمنذ

عام مضى وفي مثل هذه الدقيقة تماما أبصر طفلي النور. كنت أحاول أن أتذكر تماما الشعور الذي راودني حينذاك. كان المركب يتأرجح، وجعلني كأس الجعة الذي تناولته أشعر بالدوار. أحسست بمعدتي تعتصر وجافاني النوم. نعم، هذه هي الأبوّة، فهي، وبإيجاز، كل شيء مختلف ولكن لا شيء يتغير. يا للخداع!